الفكر

المحتوى

لنعتبر بها يقولونه عن أنفسهم ..... محمد مزالي
التعليم الهيكل للعربية الحية ..... رضا السويسي
دور الثقافة في تنمية الانسان ..... محمد مزالي
الى من يظلم ابا حيان التوحيدي ..... عبد العزيز الهاني
القيروان في شعر شعرائها القدامى والمحدثين ..... احمد الطويل

الشعر

عيون القيروان ..... حسن كامل الصيرفي
منخفضات الوجع القاسي ..... يوسف رزوقة
عد بنتسي ..... فتحي الجلاصي
فلسفيق ..... كمال الفحراسي
نادبا ... ومشانق العالم ..... رضا بورخيص
قصيدة التشفي ..... محمد الشابي

مطالعات

الفكر العربي بين الاستلاب وتاكيد الذات | تاليف : عبد الكريم غلاب
تقديم : عبد الله العلايلي

ندوة

مقولة «عصور الانحطاط» في الميزان ... عمر خير الدين

قصة ـ بريد ـ اصداء

السنة 23 ـ العدد 6 ـ مارس 1978 الثمن : 320 مليما

الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات

تأليف : عبد الكريم غلاب
تقديم : عبد الله الخلايفي

يثير كتاب «الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات»(*) لعبد الكريم غلاب قضية راهنة وعلى جانب كبير من الخطورة في الفكر العربي المعاصر هي : كيف نبني فكرا عربيا ومعاصرا في آن واحد دون أن نقع في التبعية ودون أن نتخلى عن الذات ؟

وهذا التساؤل كان نتيجة حتمية للحوار القائم بين الفكر العربي والفكر الغربي بتياراته واتجاهاته المختلفة . وهو حوار تميز تارة بالهدوء والترحاب واخرى بالمقاومة والرفض ومازال مستمرا منذ عصر النهضة ومنذ أن وعى العرب تخلفهم وهم يلتقون بالغرب عبر البعثات والحضور الاستعماري والفكر والثقافة الوافدين .

في اطار هذا التساؤل ومن خلال الاجابات المطروحة برزت عدة قضايا ومقولات من أهمها : الاصالة ـ المعاصرة ـ الخصوصية ـ الذاتية ـ الاستلاب .

(*) نشر الدار العربية للكتاب ، تونس / ليبيا 1977 ، 219 ص .

واستخدام المفكر العربي لهذه المفاهيم له عدة معاني :

1) أن الفكر العربي متخلف وعاجز عن احتواء واقع العرب المعاصر وان تجديده ضرورة لامفر منها يقتضيها الوجود العربي برمته .

2) ان تحديث هذا الفكر لا يعني اعتباره قضية منتهية كما لا يعني رفض ما فيه من مقومات أساسية شكلت رؤيته للانسان والمجتمع والكون ، ولذلك فان تحديثه يعني أولا بقاءه واستمراره .

3) ان التجديد المطلوب لا يعني الاستعاضة عن هذا الفكر بفكر آخر هجين يفرض على واقع متميز بتضاريسه ومكوناته وعوامله الخاصة ، كما لا يعني التغيير والتجديد والانطلاق من لا شيء بل لا بد من التفتح على الفكر الاجنبي ونبذ الانغلاق والجمود .

هذه في نظرنا أهم المنطلقات التي أعرب عنها عبد الكريم في تناوله لمشكلة الاستلاب في الفكر العربي التي يرى فيها « قضية القضايا » (ص 8) .

ويعرف المؤلف الاستلاب بنتائجه فيقول :

« الاستلاب يسلب المستلب فكره وحضارته وأدبه وثقافته أو على الاصح خصوصيته الاصيلة المتجددة في كل ذلك » (ص 7) .

وتترتب عن هذا التعريف عدة مقولات :

1) أن القول بالاستلاب يسلم بوجود ماهية أصيلة للفكر العربي ، وهذه الماهية هي جماع معطياته التاريخية والاجتماعية والاقتصادية .

2) القول بوجود قطيعة بين المفكر وذاته وبين المفكر والواقع الذي ينطلق منه .

3) ان الاستلاب يقابل امتلاك الذات والاستقلال اي الابداع باعتباره وعيا للمفكر بذاته وتميزه .

ان الكتاب في فصوله المتعددة القضايا استقصاء لظاهرة الاستلاب الفكري واستجلاء لاسبابها ومظاهرها وهي في الآن نفسه محاولة لتجاوز هذه السلبية الكبرى التي يتخبط فيها الفكر والمفكر معا . ومن ثمة فهو دعوة الى الاصالة في مقابل الزيف ، والى الحرية في مقابل القهر والى الابداع في مقابل العجز والاجترار .

ومادام الحديث يدور حول الاستلاب وتأكيد الذات في الفكر العربي فان السؤال المشروع الذي يجب أن يطرح يتمثل فيما اذا كنا نستطيع الكلام عن فكر عربي · ان الحاق وصف « العروبة » بالفكر يعني حصره ضمن حدود اقليمية وربطه بذات قومية ، وهو ربط يبدو لاول وهلة متناقضا مع اعتبار الفكر قيمة انسانية لا تقف عند السدود والحدود ·

يحسم المؤلف هذا الاشكال بتأكيد ان « الفكر ابن الحياة » (ص 10) وان الفكر العربي كغيره متأثر في تكونه بعوامل خاصة بالامة العربية ومنها العرق والتاريخ والدين والطبيعة ·· وكل هذه العوامل التي تعبر عن قومية الفكر العربي تعبر في الآن نفسه عن انسانيته . وللفكر العربي مقومات من أهمها الدين الاسلامي وله ميزات من أبرزها حرية التفكير والتعبير والتفتح ·

اذا أثبتنا وجود هذا الفكر في تميزه وانفراده فهل بامكاننا ان « نؤكد ذاته » والحال أن هذه الذات ضعيفة لا تقوى على المجابهة ؟

هل نقنع بهذا الفكر كما استوى في الماضي باعتبار انه الفكر العربي الاصيل ؟

ان عبد الكريم غلاب ينفي عن نفسه الدعوة الى الوقوف السلبي من « تطور الفكر ومسيرة التاريخ » (ص 7) ويرفض التقوقع والانغلاق والتشبث بالماضي على علاته ، انه يدعو الى « صمود الفكر العربي في خصوصياته المتجددة حتى لا يصبح تابعا ـ مجرد تابع ـ في عالم لا يعيش فيه غير الذين تستقيم خواتهم وهم يؤكدون وجودها » (ص 8) ·

فالتبعية اذن مظهر بارز من مظاهر الاستلاب ، والتبعية تنجم عن عوامل عدة.

1) منها الاستعمار الذي أدى الى غياب المفكر العربي عن الارض والتاريخ واستعمل شتى الوسائل للقضاء على شخصية المستعمر (بفتح الميم) في مستوياتها المختلفة · ولئن رحل المستعمر كوجود مادي وعسكري خاصة فان نهايته لم تضع حدا للاستلاب الفكري لان الاستعمار قد كون شخصية جديدة في البلاد التي كان يحتلها وزرع في بعض فئاتها قابلية التخلي عن الشخصية القومية وتبني الافكار الغربية وتقديس اللغة الاستعمارية . وهذه الفئة الوريثة للمستعمر تتبنى منطقه وسلوكه واسلوبه . ويلح عبد الكريم غلاب على القضية اللغوية ايمانا منه بان اللغة ليست أداة لنقل الافكار فحسب ولكنها بما تحمله من شحنات ثقافية ومفاهيم متقاربة ان لم نقل واحدة تعتبر مقوما أساسيا في الفكر العربي ·

2) ان التبعية ليست ظاهرة ناتجة عن الاستعمار العسكري والاقتصادي والثقافي فحسب ولكنها أيضا ناجمة عن التخلف وعن قابلية احتضان الافكار الوافدة مثلما تقبل البضاعات من آلات ومواد وغيرها .

3) اذا كان تقليد الغرب تبعية وبالتالي استلابا فان الوقوف عند الماضي وتمجيده واجترار ما كتبه الاقدمون والعجز عن الابداع هي الاخرى استلاب ومن مظاهر الاستلاب في الفكر العربي :

1) **المثالية** : فاعتبار الفكر رياضة فكرية وتعاملا مع المجردات يؤول الى قطيعة بين المفكر والواقع الذي يعيش فيه . ان المثالية استلاب لانها « ترف » ولانها اعراض عن الواقع وابتعاد عنه .

ولذا يلح عبد الكريم غلاب على ضرورة الارتباط بالواقع وفهمه وتحليله وايجاد الحلول لمعضلاته :

« نحن في عالمنا المتواضع مدعوون أن نفكر بدافع من واقعنا ومن الحاح هذا الواقع وبدافع من حاجتنا ومصلحتنا وبدافع من هذه الحاجة والمصلحة » (ص 158) . كما ينادي « بمنطق عملي يتسم بسمة العصر » (ص 158) وفي ربطه الفكر بالعمل وتاكيده على التزام الواقع الاجتماعي والحضاري العربي يتبنى عبد الكريم غلاب المذهب الذرائعي (البراجمتزم) ملتحقا بصنف من المفكرين العرب يأتي « زكي نجيب محمود » في كتابه « تجديد الفكر العربي » على رأسهم .

2) **تمزق المفكرين العرب :**

ان الاختلاف في الفكر وبين المفكرين أمر طبيعي وحاصل ولكنه يضحى استلابا اذا كانت أسس الخلاف تستند الى ما يأتي من الخارج . « والاختلاف بين المفكرين العرب ليس ذاتيا بقدر ما هو تبعي » (ص 190) ويضاف الى التبعية تعميق الوطنيات الضيقة التي تستمد وجودها من الاستعمار والقبلية والعشائرية .

ان التطلع الى الوحدة العربية يستدعي أولا توحيد الفكر ولا يعوز المفكرين العرب الاسس الاولية التي يمكن أن يقام عليها هذا التوحيد : فهناك أولا الواقع العربي وهو قاسم مشترك بين كل المفكرين وهناك ثانيا الشعور بالدور والمسؤولية التي تقع على كاهل المفكر تجاه وضع مأزوم متخلف وهناك ثالثا اللغة العربية التي تتطلب الدعم والتطوير وهي حجر الاساس في الوحدة الفكرية .

كيف نخلص الفكر العربى من الاستلاب ؟ كيف نجدده دون ان نجعل منه فكرا تابعا ؟ هذه التساؤلات تصدى عبد الكريم غلاب للاجابة عنها فى أكثر من موضع ـ ذكرنا بعضا من هذه الاجابة فيما سبق ـ وقد خلص بعد تحليل لمجموعة من السلبيات السائدة فى الفكر العربى الى أن الثورة الفكرية شرط أساسى ولازم لكل تغيير حضارى أو ثقافى ، ومكان المفكر انما هو داخل المعركة لا خارجها والاكتفاء بالتفرج والاطلالة من بعيد تهمة فى عرف « غلاب » ان لم نقل خيانة .

واقعية التفكير هى المقولة الاولى والجوهرية فى رؤية الكاتب للتغيير المنشود . ومن ثمة فان ربط الجامعة بالواقع امر لا مناص منه لان الفكر حسب المؤلف منبعه الجامعة ولان الجامعة لا تنحصر وظيفتها فى تكوين الاطارات والموظفين ولكنها ـ وهو الاهم ـ تخرج الاطر الفنية والفكرية القادرة على الابداع والتفكير المستقل .

والواقعية فى التفكير تستدعى التسلح بالعلم والاخذ بمناهجه حتى نتجنب التفكير العاطفى وهو مظهر من مظاهر التخلف وحتى نفهم الواقع فهما صحيحا يمكننا من ايجاد الحلول ، اى من التغيير : « .. التفكير بالعلم لا يراد منه تطور نوع التفكير ـ لمجرد التفكير ـ بمقدار ما يراد منه تطور مستوى الحياة ومستوى الانسان على العموم » (ص 146) .

والمقولة الثالثة تتمثل فى أن هذه الثورة الفكرية لا يمكن أن تتم ما لم يراع مبدأ حرية التفكير ، لذلك فان رسم الحدود التى ينبغى أن تبنى عليها العلاقة بين المفكر والسلطة السياسية أمر واجب .

اننا قد لا نتفق مع عبد الكريم غلاب فى بعض القضايا الجزئية كتقييمه للفكر الناصرى وفكر البعث (فصل : الفكر السياسى) وقد لا نتفق معه فى رؤيته للحرية فى الاسلام وقوله بأن : « الخلافة كانت فى جوهرها جمهورية ديمقراطية اتحادية وانتهت الى امبراطورية فردية » (ص 26) ولكننا نعتقد أن طرح قضية الاستلاب بابعادها الخطيرة يدل على فهم عميق لحقيقة التجربة التى يواجهها الفكر العربى فى العصر الحديث ولتميزها عما سبق من تجارب كما يدل على عزم المفكر العربى على الابداع والتجديد والتخلص من السلبيات والعوائق التى تحول بينه وبين بناء فكر عصرى اصيل .

ونعتقد أيضا أن هذا الكتاب مساهمة تضاف الى جهود المفكرين السابقين على المفكر المغربى من أمثال : أنور عبد الملك وحسن صعب وزكى نجيب محمود.